الطبيعة في الفكر الشرقي القديم
الحضارة المصرية أنموذجًا

حشلوف محمد العابد*

إشراف: أد. بوسيف ليلى**

****

عرف الفكر الفلسفي الإنساني ومنذ الإرهاصات الأولى لظهوره، عدّة مراحل وأطوار في حركته التاريخية، إذ كان لكل مرحلة من المراحل خصائصها ومميزاتها التي تميزها عن الأخرى، من حيث الإطار الزماني والمكاني من جهة، وطبيعة الفلاسفة المفكرين الذين عايشوها من جهة أخرى.

ويُجمع جُل المؤرخين والدارسين للفكر الفلسفي أو الفلسفة على أن الحضارات الشرقية القديمة هي نقطة الانطلاق لهذا الفكر الفلسفي، أو على الأقل المُحاولات الأولى في تقصي كُل مباحث المعرفة التي يُمكن للإنسان الوُصول إليها، بغض النظر عن إن كانت هاته المُحاولات ذات صبغة فلسفية حقيقية أم لا، لأن ذلك موضوع آخر انقسم فيه الباحثين إلى اتجاهين، الأول يرى أن ميلاد الفلسفة بمعناها الحق قد وُلد بين أحضان فلاسفة **(ملطية) (طاليس- أنكسمندر- أنكسمانس)** في القرن السادس قبل الميلاد، والثاني يرى أن الفلسفة تمتد جذورها إلى الفكر الشرقي القديم، **(الفكر الهندي القديم- الفكر الصيني القديم- الفكر البابلي- والمصري القديم.....)**.

وبالحديث عن الحضارات الشرقية القديمة، لا يُمكننا إغفال وجهة نظرنا عن إحدى أهم هاته الحضارات التي خطت سطوراً من ذهب في تاريخ الفلسفة، وهي **(الحضارة المصرية القديمة)**، من خلال ما قدمته من تفسيرات وتصوُرات في الطبيعة وأصل الوُجود كأول مبحث من مباحث الفكر الفلسفي الإنساني، فالعلم الطبيعي كان يُعادل في ذلك الزمان وزن **(الفيزياء أو الكيمياء)** مثلاً في عصرنا الحالي، حيث أصبح كُل من يخوض في هذا المبحث الفلسفي، سواء كان على المستوى الشخصي كفيلسوف مُفكر، أو يُمثل قُطراً جغرافياً معيناً، إنما يُعبر عن نوع

* طالب دكتوراه، وعضو في مختبر الأبعاد القيمية للتحولات الفكرية والسياسية بالجزائر - جامعة وهران2.

** قسم الفلسفة، وعضو في مختبر الأبعاد القيمية للتحولات الفكرية والسياسية بالجزائر - جامعة وهران2.

Abstract : Our choice of the subject of nature in ancient Egypt refer to the importance of this philosophical basis in all the subsequent stages in the history of philosophy ، specially the Greek era which experienced the extent of Egyptian ancient thought ، nearly all researchers and historians and with a marked unanimity ، underline the part of this human philosophical thought throughout its history.

So ، we try to approach the interpretations and concepts of the four doctrines in order to arrive at an integral extrapolation that includes the ideas and reflections of the four doctrines into a single interpretation of the ancient Egyptian thought in general.

Keywords: Ancient Egyptian ، civilization ، the Greek ، the nature.

من أنواع التحضُر والرُقي الفكري، والدليل على ذلك، أن الدارسين لإشكالية أصل الفلسفة السابق ذكرها، استخدموا حضور مبحث الطبيعة كمعيار لحضور الفلسفة بمعناها الحقيقي. لأن إعمال الفكر والتأمُل العقلي، لا يُمكن حصرُه بأي حال من الأحوال في رُقعة جُغرافية مُعينة، فالإنسان الأول تأمل مُحيطه وعالمه الطبيعي الذي يعيش فيه، وما يحتويه من جميع **(الظواهر طبيعية)**، فكان لزاماً عليه فهمها وتفسيرها ليتجنب شرها، وكما قُلنا أن مراحل الفكر الفلسفي الإنساني تختلف باختلاف مفكريها وفلاسفتها، فها نحن هنا بصدد البحث في مفهوم الطبيعة في الحضارة المصرية القديمة.

فكيف تصوّر قدماء المصريون أصل الوجود والعالم الطبيعي؟

مفهوم الطبيعة في الفكر المصري القديم:

خصص إنسان مصر القديمة حيزاً كبيراً لفلسفة الطبيعة وتفسير نشأة الوجود، من خلال أربع تفسيرات كبرى قدمها أهالي أربع مدن كبرى في مصر القديمة، هي **(أون)** أو مدينة الشمس **(هليوبوليس)**، ومدينة **(أونو)** أو مدينة الأشمونيين الحالية، ومدينة **(منف)**، وأخيراً مدينة **(واست)** أو مدينة الأقصر الحالية، مجسدين إياها في جملة من التساؤلات: **كيف جاء هو وهذا العالم إلى الوجود؟ ومن صنعه وصنع هذا العالم؟ وما هي القوى التي تتحكم في حركته وفي حركة العالم؟كيف يمكنه أن يرضي هذه القوى الطبيعية المختلفة ويتجنب خطرها وشرورها؟ وكيف يمكن استجلاب خيرها وينال رضاها؟**[1]

1- المذهب الشمسي:

ينسب هذا المذهب إلى أهالي مدينة **(أون هليوبوليس)**، مدينة الشمس وهي مدينة **(عين الشمس)** الحالية، ويعدّ أقدم مذهب معروف في تفسير نشأة الوجود، وربما يرجع هذا المذهب إلى ما قبل التاريخ المكتوب للحضارة المصرية القديمة، لكن أقدم تسجيل لنص هذا التفسير شبه المتكامل، وجد داخل هرمي **(مرن رع)** و**(نفر كارع)**، من الأسرة السادسة، أي يرجع إلى حوالي القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد **(ق 24 ق.م)**[2]

وقد ورد في هذا النص: "يا آتوم- خبرر أنت على القمة على التل على (الهيولى)، ظهرت كالطائر "بن" الخاص بالحجر "بن" في منزل "بن هليوبوليس"، بصقت ما كان (شو) و(تفنوة) و(جب) و(نوة) و(أوزيريس) و(إيزيس) و(ست) و(نفتيس)، الذين ولدهم آتوم باسطين إلى مدى بعيد قبله، يفرح عند إنجابه إياك في أسمك الأقواس التسعة، يا ليت ألا يكون بينكم من سيبتعد بنفسه عن آتوم، لأنه يحمي هذا الملك نفر- كا- رع، لأنه يحمي هرم هذا الملك نفر- كا-

[1] محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، مكتبة البيت الأخضر، القاهرة (مصر)، (ط1)، 1937، ص ص (51-52).

[2] عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، العدد 26 من مجلة "المجلة"، القاهرة (مصر)، فبراير 1959، ص (23).

رع، لأنه يحمي عمله الإنشائي هذا من كل الآلهة ومن كل الموتى ولأنه يحمي حتى لا يحدث له أي شيء مكروه عبر طريق الأبدية"[1]

لقد تأمل أصحاب هذا النص في نشأة الوجود وبدأ الخليقة، وانتهوا إلى القول بماضي سحيق قديم لم تكن فيه أرض ولا سماء ولا كائنات ولا بشر، وإنما عدم مطلق، واتّفقوا مع القائلين ممن سبقهم بأن ذلك العدم المطلق لم يكن يشغله سوى كيان مائي لا نهائي، ذلك الذي أطلقوا عليه اسم **"نون"**، وقد أضافوا أنه في حقبة بعيدة ظهر في هذا الكيان المائي العظيم روح إلهي أزلي خالق هو **"أتوم"**، وأتوم لفظ مصري يجمع بين ضدين من المعاني، معنى **(العدم)** تكنية عن نشأة صاحبه من العدم، ومعنى **(الشمول والاكتمال)** تكنية عما أرادوا تصوير الإله به من قدرة وجلال.[2]

فإذا كانت الحروف الأصلية في اسم **(أتوم atoum)** الإله الأزلي، هي بعينها الحروف الأصلية في الفعل **"تم كمل"** فيكون مرجع ذلك إلى أن **(أتوم atoum)** هو الإله الذي **"أتم"** نفسه بذاته، بخلق نفسه أولاً ثم خلق العالم بعد ذلك.[3]

وبذلك يكون، **"أتوم"** المعبود الرئيسي لمدينة **(هليوبوليس)** مثله المصريون على هيئة آدمي يحمل فوق رأسه قرص الشمس، واعتقد الناس أنه خلق نفسه من نفسه على قمة التل الأزلي الذي انحسرت عنه مياه المحيط اللانهائي، ومن ثم خلق من نفسه معبودين هما **(شو وتفنوت)**، تزاوجا وأنجبا **(جب ونوت)** الذين تزاوجا وأنجبا أربع معبودات: (**أوزيريس- إيزيس- ست ونفتيس)**. وأنجب **(أوزيريس وإيزيس)** المعبود **(حورس)**، وهكذا تكوّن **"تاسوع هليوبوليس"** الذي أنجبه الإله الأول **(أتوم)**، وكذلك أخذت **"هليوبوليس"** بعبادة قرص الشمس تحت اسم **(رع)** واندمج الإلهان.[4]

وقد ظهر **"أتوم"** أول ما ظهرعلى قمة تلك الجزيرة المائية الضخمة، وكان الرمز الذي يعبرعن (التل) أو (الرابية) في اللغة (الهيروغريفية)، ويعني أيضاً **(ظهور مجيد)**، ورسمه مرتفع محدودب، تنطلق منه أشعة الشمس صعداً حتى يصور معجزة ظهور الإله الخالق لأول مرة.[5]

ومما تقدم، يتضح لنا جلياُ أن مفكري المذهب الشمسي كانوا يقرون بوجود العماء أو "الكاوس" أو كما يسميه البعض باللغة الفلسفية "اللاوجود" أو كما سموه "نون" الذي كان يكتسيه الماء، لكن أصحاب المذهب الشمسي حسب ما رأينا كانوا أذكياء، لأنهم فصلوا بين هذا الكيان المائي العظيم وبين ظهور إلههم "أتوم" حتى لا يصبح الماء هو موجد "أتوم"، وبالتالي

[1] j.h.breasted :devlepment of relegion and thought in ancient egypt. New York. 1912.

[2] عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، ص (33).

[3] فرونسوا ديماس، آلهة مصر، ترجمة: زكي سوس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (مصر)، (د ط)، 1998، ص (31).

[4] سمير أديب، موسوعة الحضارة المصرية القديمة، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة (مصر)، (ط1)، 2000، ص (33).

[5] جون ولسن، ما قبل الفلسفة، ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا، منشورات دار مكتبة الحياة، بغداد (العراق)، (ط1)، 1960، ص (67).

يتحلى بصفة الربوبية، فالإله الواحد الأوحد عندهم هو "أتوم" وكان إقرارهم ب"نون" لتعظيم شأن الإله "أتوم" فبظهوره انتقل الوجود من العماء والفوضى إلى الترتيب والنظام.

فقد ظهر الإله **"أتوم"** الأول العظيم منفرداً بوحدانيته على تلك الرابية أو على تلك الهيولى التي لا شكل لها، حتى ذرأ أو أوجد من نفسه أول عنصرين من عناصر الوجود، أحدهما ذكر تكفل بأمر الفضاء والهواء والنور عرف باسم **(شو)**، والآخر أنثى تكفلت بأمر الرطوبة والندى عرفت باسم **(تفنوة)** واختلط العنصران أو الروحان الإلهيان وتفاعلا أو تزاوجا على حد تعبير الإنسان المصري القديم، فتولد عنهما بقية **"التاسوع الإلهي العظيم"**، حيث ظهر بعدهما عنصران جديدان، أحدهما ذكر تكفل بأمر الأرض وسمي **(جب)**، والأخرى أنثى تكفلت بأمر السماء وعرفت باسم **(نوة)**، وقد كانت السماء والأرض في بداية أمرها متصلين جسداً وروحا إلى أن أذن الإله الخالق أن يبزغ من بينهما فجر الحياة، فأوحى إلى **"شو"** أن يفصل بينهما، فرفع **"شو"** السماء عن الأرض ونهض بها إلى أعلى علين، ثم ملأ الفراغ بينهما وبين الأرض بما كان يحيط به ويصدر عنه من هواء وضياء.[1]

نجد أن **(أتوم)** إله الشمس الذي كان موجودا في العماء الأزلي، كان موجودا كذلك مع استحداث وتطور الترتيب المنظم للكون. وفي هذه المرحلة يضطلع **(أتوم)** بدور خالق جميع الأرباب، وأسفرت عملية الخلق هذه في رؤية الإنسان لها عما يسمى:

أ- التاسوع أو وحدة الأرباب التسع في ربوبية واحدة.

ب- مبدأ الصانع البارئ.

ج- مبدأ الأرباب المخلوقة.

د- مبدأ المحرك عير المتحرك.

هـ- مبدأ الأضداد.

و- الحضور في الكل والمعرفة المحيطة بالكل.[2]

تصور علماء اللاهوت في **"هليوبوليس"** إلههم **"أتوم"** في صورة خالق ذاته، إنه نجح في بادئ ذي وبدئ خلق نفسه بنفسه، وكان هذا نهجاً للتعبير عن أبديته. وكان من صفاته "ذلك الذي جاء للوجود من تلقاء ذاته". غير أن سيطرة الشكل الإنساني التلقائية على الفكر قد دفع بالكهنة إلى تصور عملية القران بوصفها حلاً لخروج الإله من عزلته وإحاطة نفسه بكائنات أخرى.[3]

ذلك كان الوضع الأول الذي ظهر عليه الوجود، حيث لم يكن فيه إلا هؤلاء الأرباب الكبار، وكانت هيئة الوجود بهذا الشكل مهيئة لوجود الكائنات الحية والإنسان، فاستكمل الخلق بأن

[1] مصطفى النشار، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة (مصر)، (ط1)، 1997، ص ص (55-56).

[2] جورج جيمس، التراث المسروق (الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة)، ترجمة: شوقي جلال، المجلس الأعلى للثقافة، الإسكندرية (مصر)، (د ط)، 1996، ص ص (137-138).

[3] فرونسوا دياس، آلهة مصر، ص (33).

تولد عن الإلهين السابقين أربعة آخرين، ذكران هما **(أوزوريس)** الذي تكفل في الأرض بأمر الفيضان والخصب والنمو، و**(ست)** الذي تكفل بأمر أمطار السماء ورعدها وأعاصيرها، وأنثيان ارتبطت كل واحدة منهما بزوجها هما **(إيزيس)** التي ارتبطت بـ **(أوزوريس)** و**(نفتيس)** التي ارتبطت بـ **(ست)**، وبهذا اكتمل التاسوع الإلهي العظيم الذي عد أصل الوجود بكل ما فيه من عوالم وكائنات حية وجماد.[1]

وقد تباينت آراء أصحاب هذا المذهب حول الطريقة التي ذرأ بها **"أتوم"** مخلوقاته الأوائل، لاسيما **(شو وتفنوة)**، فقال بعضهم إنه خلقها عن طريق (الاستمناء أو ماء اللقاح) كما يُخلق بنو البشر عادة، وقال آخرون بأنه خلقهما عن طريق(السعال أو البصق)، وقد استفاد الآخرون من المدلول اللفظي للاسمين **(شو وتفنوة)**، ومن قدرتهم على التأويل العقلي، فقربوا بين كلمة **"شو"** وبين الصوت الذي يصدر عن الفم إذا نفخ والأنف إذا عطس، كما قربوا بين كلمة **"تفنوة"** وبين الصوت الذي يصدر عن الفم إذا بصق، وانتهوا من محاولتهم التأويلية هذه إلى أن ربهم الخالق **"أتوم"** نفخ ذات مرة أو عطس عن قصد فصدر عنه **"شو"** روح الهواء، وتفل مرة أخرى عن قصد فصدرت **"تفنوة"** روح الندى والرطوبة.[2]

ولما ذاع هذا المذهب وانتشر، كثرت التفسيرات والتفريعات التي تفرعت عن المذهب الرئيسي، وكان أبرز التطورات التي لحقت به، ذلك التفسير الذي ربط أصحابه بين الإله **(أتوم)** والإله **(رع)**، الذي كان إلهاً يعبد ويدين به الكثيرون، مما اضطر معه أهالي مدينة **"أون"** أن يجددوا في عقيدتهم الدينية والفلسفية، وأن يقرنوا **(رع بأتوم)**، وقد حدث هذا التجديد في عصر الدولة الوسطى، أي حوالي عام (2000ق.م) على وجه التقريب، وقد عبر نص من الفصل السابع عشر من كتاب "الموتى"، قد كتب فيما بين الأسرة الثامنة عشر إلى الأسرة الحادية والعشرين عن هذا التطور، حيث جاء فيه: "إني الإله أتوم في شروقه الواحد الوحيد....أتيت إلى الوجود في "نون"...إني "رع" الذي نهض في البدء وحكم ما قد صنع...إني الإله العظيم الذي أولد نفسه نظير "نون" الذي صاغ أسماء الآلهة، ليوجدوا كآلهة، من يكون هذا إذن؟ إنه "رع" خالق أسماء أعضائه الذين أتوا في صورة الآلهة في موكب "رع" إني أنا هو في الصدارة من بين الآلهة، من يكون هذا إذن؟ إنه "أتوم" في قرصه أو (كما يقول آخرون) إنه "رع".[3]

لقد ارتبط الإله "أتوم" بـ "رع" في هذا النص وأمثاله ارتباطاً لا ينفصم سواءاً من جانب أنصار "أتوم" من أصحاب التفسيرات الأولى للوجود عبر "أتوم" وحده، أو من جانب أنصار "رع" الذين حاولوا قدر استطاعتهم أن يلتمسوا الأسباب التي تربط بين إلههم وبين "أتوم"، فبدا "رع"

[1] مصطفى النشار، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، ص ص (56-57).
[2] جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب القديمة، ترجمة : إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة، العدد173، الكويت، ماي، 1993، ص (46).
[3] مصطفى النشار، المرجع نفسه، ص ص (57-58).

وكأنه ليس إلهاً جديداً يضاف إلى "أتوم" بل هو "أتوم" نفسه، ذلك الإله الخالق القديم، الذي شاءت إرادته أن يتجلى على الناس في هيئة "رع" إله الشمس، وأن ينير العالمين بأفقه العظيم.[1]

كان قدماء المصريين يضفون على ما نطلق عليه مبدأ **(تماثل الشخصية)**، إفاضة أوسع مدى عن مفهومنا، بما لا يقاس، وفيما يبدو، لم يفصلوا فكرة المشاركة التي تسمح دون سواها، بتوطيد الروابط بين الجواهر المتميّزة، وهم يذهبون بعيداً في مجال **"تماثل الشخصيات"** هذا حتى يصل الأمر بهم فيه إلى ضمان المحافظة غلى كل التفسيرات الدينية التي يضعونها جنباً إلى جنب في رعاية، دون إحلال بعضها محل البعض الآخر، إن هذا يؤدي بنا إلى الظن بأنهم كانوا يعتبرون كلاً منها صالحاً، على طريقتهم.[2]

وكتقييم لتصورات حكماء المذهب الشمسي، يمكننا القول أنهم قدموا تفسيراً في الفلسفة الطبيعية ونشأة الوجود، حيث جسدوه في الإله **"أتوم"** كمبدأ أول للوجود من حيث أنه بارئه، وبذلك يكون هذا التصور ألوهياً ذات صبغة معنوية تجريدية أو غيبية إن صح لنا ذلك، لكن أهم ما يمكننا ملاحظته هو أن هذا التصور يوحي إلى أبعاد أخرى غير مجرد التفسير العلمي أو الفكري، فكان يحمل أبعاد أخرى تتعدى الأبعاد الفكرية الفلسفية، فلم يكن الإله عندهم يكتسي صفة الإلوهية كقداسة، بل كان وسيلة للوصول لغايات يعرفها أصحاب القرار في اختيار الإله المناسب في الوقت المناسب من الكهنة وفقهاء الدين عندهم، وربما أكبر دليل على كلامنا هذا هو عدم الثبات في إتباع إله واحد واقتران الإله **"أتوم"** بالإله **"رع". فما هي الأبعاد الأخرى التي تتعدى الأبعاد الفكرية الفلسفية في هذا الشأن؟**

المذهب الأشموني:

هو نسبة إلى مدينة الأشمونيين الحالية في مصر الوسطى، وكانت تعرف في الزمن القديم ب **(أونو)** أو **(هرموبوليس)**، فبداية هذا التفسير الجديد لأصل الوجود والعالم الطبيعي، فيرجع إلى الجدل الذي كثر حول المذهب الشمسي في المدن المصرية المختلفة، وإلى محاولة حكماء مدينة (أونو) أن يناهضوا هذا المذهب، وربما يكون ذلك وراء أسباب سياسية تمثلت في نوع من الانشقاق السياسي الذي عز معه على حكماء المدينة أن يظلوا أتباعاً لمذهب منافسيهم، ومن ثم فقد أعلنوها حرباً في السياسة والدين والفكر في آن واحد.[3]

وقد حاول هؤلاء الحكماء في البداية أن يشككوا في بعض عناصر المذهب الشمسي، متسائلين فيما بينهم إذا كان "رع أتوم" قد خرج أصلاً من "نون" كما قال أتباعه، أفلا يعتبر بذلك ولداً "لنون"؟ وإذا كان كذلك، ألم يكن من المفروض أن يتوفر "لنون" طرفان للإنجاب؟ وما الذي كان يحيط ب"نون" قبل أن ينجب ولده؟ وكانت له رغبة حقيقية في ذلك؟[4]

[1] عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، ص (36).
[2] فرونسوا ديماس، آلهة مصر، ص (33).
[3] مصطفى النشار، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، ص ص (59-60).
[4] عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، ص (37).

وبعد هذا التشكيك وتلك التساؤلات كان على مفكري (أونو) أن يقدموا تصورهم المثالي للوجود، وكيفية نشأة العالم، فقالوا بأن العالم بصورته الحالية تقدمته أربع عناصر: **(ماء كثيف- ظلام محيط – قدرة منطلقة دافعة وعنصر لطيف لا يُرى)**، وقدروا أن كُلاً من هذه العناصر الأربعة تكفل به توءمان يتفقان في الطابع ويختلفان في الجنس، أحدهما مذكر وهو الأصل، والآخر مؤنث وهو الفرع، وأنه توفر لكل من التوءم روح ربانية منفصلة، وذلك مما جعل منها ثمانية، هذه هي عناصر الوجود الأساسية عند الاشمونيين، وهذا هو أصل **"الثامون"** الذي آمنوا به، لكن السؤال الهام هنا هو: - **كيف ردوا العالم إلى هذه العناصر؟** أو بمعنى آخر: - **هل فسروا نشأة الوجود والكائنات عن هذا الثامون؟**

لقد أفاض التوءم الأول أو الروح الأول في البداية محيطاً مائياً كثيفاً، استقر فيه واتخذ مظهراً لوجوده، وتسمى معه باسم **"نون"**، واستقرت معه أنثى توائمه اشتقوا اسمها من اسمه فدعوها **"ناونت"**، ثم أحاط الروح الثالث نفسه بظلام كثيف اتخذه مظهراً لوجوده واستقر فيه وتسمى معه باسم **"كوك"**، وبنفس الطريقة استقرت معه أنثى تماثله اشتق اسمها من اسمه فسميت **"كاوكت"**، أما الروح الخامس، فقد تمثل في تلك القدرة المنطلقة الدافعة التي اشتق أصحاب هذا المذهب اسمها من لفظ يدل على الحركة المماثلة لاندفاع الأمواج أو انسياب المياه فسموها **"حوح"**، ثم افترضوا وجود الأنثى التي تقاربه واشتقوا اسمها من اسمه فسميت **"حاوحت"**[1]

أما العنصر أو الروح السابع فهو العنصر اللطيف الذي لا يُرى أي "الهواء"، وقد سموه بأسماء مختلفة منها **"تنموا"** أو **"تياو"** وأحياناً **"جرح"** أو **"آمون"**، وافترضوا له أنثى تماثله وجعلوا اسمها مشتقاً من كل المسميات السابقة وأشهرها اسم **"أماونت"**.[2]

وقد تصوروا بعد ذلك، أنه في فترة ما تجمعت هذه العناصر أو الأرواح الثمانية بما فيها من ذكر وأنثى- وشاءت أن تغير ما هي فيه من كيان قديم بكيان آخر جديد، فتعاونت فيما بينها على خلق **"دحيه"** عظيمة ووضعها فوق رابية عالية في مدينة "أونو"، ولما انشقت "الدحية" خرج منها كائن جديد لم يكن في حقيقة أمره إلا الإله "رع- أتوم"، إله النور أو إله الشمس، ذلك الإله الذي ظن أصحاب المذهب الشمسي أنه وُجد من لا شيء، ومنذ ظهور الإله "رع- أتوم"، أصبح العالم مهيئاً لظهور الكائنات ووجود البشر.[3]

أما **(مصطفى النشار)**، فقد رأى أن الاختلاف بين المذهب الشمسي والمذهب الأشموني يتمثل في أمرين أساسيين:

[1] مصطفى النشار، المرجع نفسه، ص ص (60-61).
[2] مصطفى النشار، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، ص ص (60-61).
[3] جون ولسن، ما قبل الفلسفة، ص (67).

"أولهما هو الاختلاف حول أصل الإله (أتوم- رع)، فبينما يُؤمن أنصار المذهب الأول بأنه قد أوجد نفسه من عدم، يؤمن أنصار المذهب الثاني بأنه قد جاء بعد "الثامون"، ومن تعاون تلك العناصر أو الأرواح الثمانية في خلق تلك "الدحية" التي انشقت فخرج منها الإله.

وثانيهما يتمثل في الاختلاف حول العناصر الأساسية للوجود، فبينما جاء التصور الشمسي واضحاً في تأليه العناصر المختلفة للوجود وبيان كيف أتى كل زوج منها عن الزوج السابق وأن الجميع قد أتوا بفضل الإله (أتوم) باعتباره الإله الخالق، نجد أن التصور الأشموني جاء غامضاً فيما يتعلق بتسمية هذه العناصر الأربعة الأساسية، وبكيفية التمييز فيما بين ذكر وأنثى لدرجة أن يتولد عنها عبر انقسامها إلى ذكر وأنثى ذلك "الثامون" الذي عدوه أصل الإله.[1]

لعل ذلك التمايز بين وضوح المذهب الشمسي والغموض الفلسفي الذي تميز به المذهب الأشموني "الهرموبوليسي"، هو ما ساعد على ذيوع الأول وانتشاره في الأوساط الشعبية، بينما اقتصر الإعجاب بالمذهب الثاني على أوساط الخاصة والمثقفين، وربما يرجع ذلك إلى ما تضمنه التفسير "الهرموبوليسي" من عناصر فلسفية هامة.[2]

المذهب المنفي:

يُنسب هذا المذهب إلى مدينة **(منف)** التي أسسها الملك **"مينا"** مؤسس الأسرة الأولى في تاريخ مصر القديمة، لتكون عاصمة لمصر المُوحدة ومقراً لملكه، وقد ازدهرت (منف) في ذلك الوقت لمكانتها السياسية، وقد واكب مفكرو المدينة هذا الازدهار لمدينتهم فحاولوا إثبات تفوقها على ما عداها من المدن بقولهم إن معبد إلهها الإله **"بتاح"**، كان الميزان الذي وزنت فيه مصر العليا والسفلى.[3]

وفقه إلهيات مدرسة **(ممفيس)** هو نقش على حجر محفوظ الآن في **"المتحف البريطاني"** ويحتوي على آراء المصريين القدماء بشأن الإلهيات والكوزمولوجيا (نظرية عن أصل الكون وبنيته ونواميسه) والفلسفة، ويرجع تاريخه إلى عام **(700ق.م)**، ويحمل اسم فرعون مصري يقرر فيه أنه استنسخ نقشاً لأسلافه. وأمكن التحقق من هذا الرأي على أساس اللّغة ونظام ترتيب النص. ولهذا يرجع التاريخ الأصلي لفقه إلهيات مدرسة **(ممفيس)** إلى فترة مبكرة جداً من التاريخ المصري أي الزمن الذي أقامت فيه الأسر الأولى عاصمتها الجديدة في **ممفيس: (مدينة الإله بتاح)** فيما بين **(3500، 4000 ق.م)**[4]

ولعل ذلك الاعتقاد يرجع إلى المكان الوسط الذي احتلته مدينة (منف) منذ تأسست حوالي (ق 32ق.م)، كواسطة عقد لكل من أقاليم "الدلتا" وأقاليم "الصعيد"، أي فيما بين (مصر العليا) و(مصر السفلى)، وبالطبع فقد نشط أهل الفكر في (منف) حتى يقدموا مذهباً فكرياً

[1] مصطفى النشار، المرجع نفسه، ص (62).
[2] محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، ص ص (47-48).
[3] مصطفى النشار، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، ص (64).
[4] جورج جيمس، التراث المسروق (الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة)، ص (134).

جديداً، ينطوي بداخله تلك التفسيرات السابقة، وبحيث يتجاوزها جميعاً بسمو ما فيه من تصورات لمسألة الخلق وكيفية نشأة الوجود، ولا شك أن نقطة البداية في هذا المذهب تنطلق من أمرين:

أولهما: الإعلاء من شأن مدينتهم وأربابها المحليين خاصة أقدمها جميعاً الإله "بتاح"، الذي كان يُنظر إليه على أنه – حسب معنى اللفظ – القتاح أو الخلاق رب الأرض العالية.

ثانيهما: احتواء المذهبين السابقين بنقدهما تارةً وتأويلهما ليُصبحا جزءاً من مذهبهم الخاص تارةً أخرى.

ومن هنا بدأت تساؤلات وتأملات، وربما كانت أول هذه التساؤلات إذا كان أصحاب المذهبين السابقين قد شبهوا ظهور إلههم الخلاق بظهور رابية أو ربوة عالية طافية في وسط مائي، وسواء قد ظهر الإله مباشرة في هذا الوسط كما يرى أصحاب المذهب الشمسي، أو ظهر بعد أن حلقت عناصر الوجود أو أرواحه الثمانية تلك "الدحية" التي خرج منها الإله لأول مرة، فإن الناس قد صدقوا هذه الآراء واعتنقوها.[1]

إذا كان كذلك، فلماذا لا تكون تلك الربوة العالية الطافية مدينة (منف) ذاتها، أو على الأقل جزءا معيناً منها، ولا سيما أنها كانت بالفعل أرضاً طافية في بداية أمرها قبل أن يُحول عنها **"الفرعون"** فرع (النيل) ويجنبها طغيان النيل عليها، ذلك الطغيان ألفيضاني الذي كان يحولها في الزمن القديم إلى ما يشبه المستنقع الكبير ويجعل من أرضها أشبه بالجزيرة الطافية، وإذا كانت مدينة (منف) هي ذاتها تلك الربوة العالية الطافية في بداية أمر الخليقة، فلماذا لا يكون ما حدث فيها من عمران متتابع ومنتظم منذ إنشائها على يد الملك "مينا" قد حدث عن تدبير إلهي حكيم وربما هذا التدبير مماثلاً لما حدث فيها عند نشأة الوجود لأول مرة؟

لقد تساءل حكماء (منف) كذلك عن "أتوم" وقدرته الخلاقة، فقد قال أصحاب المذهب الشمسي بأنه قد خلق من نفسه أرباب الطبيعة أو ما سموه (التاسوع العظيم)، فكيف تم خلق بقية الأرباب الأخرى التي عبدها المصريون القدماء وهي كثيرة؟ وكيف ظهر العمران في الأرض؟ وكيف تميزت الكائنات المختلفة بعضها عن بعض؟ أيمكن أن تكون هذه الأشياء جميعاً قد حدثت من تلقاء نفسها؟ أما كان للإله الخالق تأثير في إيجادها وتنظيم العالم المعمور وإصدار التشريعات والنواميس التي يعمل الجميع ويعيشون وفقاً لها؟

لقد تساءل حكماء (منف) أخيراً عن تلك الإرادة المدبرة التي فكرت في خلق العالم وفي تنظيم أموره، إن تلك الإرادة المدبرة المفكرة فيما وراء الوجود لا بُد لها أنها فكرت ودبرت قبل أن يصدُر أمر الخلق ذاته، إذ لا بُد أن يكون التفكير والتدبير قد سبقا الخلق والتعمير.[2]

[1] مصطفى النشار، المرجع نفسه، ص ص (64-65).

[2] مصطفى النشار، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، ص (66).

وهكذا وصل فلاسفة (منف) إلى افتراض وجود الإله الخالق وإلى افتراض أنه قد فكر ودبر قبل أن يخلق ويعمر، وأنه قد شمل الكون والكائنات برعايته، ورسم لكل ما في العالم قدرهُ وأفعالهُ، وقد عبروا عن ذلك في وثيقة صيغت حوالي عام **(700ق.م)**، وإن كل الدلائل الأثرية والجغرافية واللغوية، تشير إلى أن هذه الصياغة قد اشتقت من نص يرجع تاريخه إلى أكثر من **(2000سنة)** قبل هذا التاريخ.[1]

يبدأ النص (المنفي) بابتهال مُوجه إلى الإله "بتاح"، أعلن (المنفيون) في إطاره أن الأرباب الذين عرفهم البشر فبله لم يكونوا غير **"صُور من بتاح"**، وأنه هو الرب الخلاق القديم، وأنه مُنذ استوى على عرشه العظيم لأول مرة، كان روحاً للكيان المائي بكل ما احتواه من ذكر وأنثى، كما كان رُوحاً لليابس القديمة أو الأرض الطافية على وجه المياه.[2]

ويتألف النص من ثلاثة أجزاء متكاملة، يمثل الجزء الأول **"آلهة العماء"** البدائي، ويمثل الجزء الثاني آلهة **"النظام والترتيب"** ويمثل الجزء الثالث **"كبير الآلهة"** أو رب الأرباب **(اللوجوس)** الذي يرجع له إنجاز عملية الخلق، وقد جاء في نص **(الجزء الأول):**

"بتاح كبير الآلهة حمل في قلبه كل ما هو موجود، وبكلمته خلقهم جميعاً، ظهر أولاً من مياه المحيط الأزلي نون في صورة تل سرمدي، وعقب التل مباشرة ومرادف له وإلى جواره ظهر أيضاً الإله أتوم من المياه واستوى فوق بتاح (التل)، وبقى في الماء أربع أزواج من الأرباب الذكور والإناث وهم الثماني الربوبي الموحد (OGDOAD) ويحملون الأسماء التالية:

1- **نون ونونيت** أي محيط المياه الأزلي والسماء المقابلة.
2- **هوه وهوهيت** أي اللامحدود وضده.
3- **كوك وكوكيت** أي الظلمة وضدها.
4- **آمون وآمونيت** أي الخفي وضده.[3]

وبناءً على ما سبق، بدأ (المنفيون) يصفون الإله "بتاح" بصفات جديدة تميزت عن كل الأرباب بصورة غير مسبوقة[4]، فاعتبروه بمثابة **"القلب واللسان"** لهم جميعاً[5]، وليس "القلب واللسان" بالشيء الهين، فما من شك أن للقلب واللسان سيطرة في كل جسد، والدليل قائم في كل صدر وكل فم للأرباب، والبشر والأنعام والزواحف على السواء، وإن طلبنا منهم الدليل الأقوى على صحة ما يقولونه، قالوا: **"إن ما تشهدُه العينان وتسمعُه الأذنان وتشممُه الأنف، إنما يرتقي جميعاً إلى القلب، أما عن الفم فهو الناطق بكل شيء".**

[1] عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، ص (36).
[2] مصطفى النشار، المرجع نفسه، ص ص (67-68).
[3] جورج جيمس، التراث المسروق (الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة)، ص ص (134-135).
[4] توملين (أ.و.ف)،فلاسفة الشرق، ترجمة: عبد الحميد سليم، دار المعارف، القاهرة (مصر)، (ط2)،1980،ص (37).
[5] عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، ص (40).

ولا ينبغي أن نقلل من شأن هذه الصفات، فهما- أي وصف الإله بأنهُ بمثابة "القلب واللسان" لكل الآلهة- ليسا مجرد استعارتين تقليديتين، فالمصريون القُدامى كانوا يقصدون بلفظة **"القلب"** شيئاً أكثر شبهاً بالعقل أو الإدراك، في حين يُشيرون إلى **"اللسان"** بالحديث أو التعبير، وبالتالي فليس معنى أن الإله (بتاح) هو قلب ولسان الآلهة أنه **" مجرد مترجم للآلهة في جلسة عمومية، بل هو العقل المُقدس ذاته المشترك في عملية الخلق بتقديم فكرة ثابتة عن أفكاره"**[1] – على حد تعبير (توملين)-

و**"بتاح"** له الصفات التالية:

أ) كبير الآلهة أو رب الأرباب.

ب) اللوجوس أي الفكر وكلمة الخلق والقوة.

ج) إله النظام والصورة والإله الصانع والخزاف.[2]

إن الإله إذن هو الذي يفكر في الخلق، وينطق بما فكر فيكون الخلق ذاته، وهذا ما تشير إليه الفقرات التالية من النص (المنفي) حيث يقول فلاسفة (منف): "وهكذا إنما هو في الأصل قلب أو (عقل) أرسل الآيات جميعاً، وإنما هو كذلك لسان أزلي على ترديد ما تدبره الفؤاد، فعن طريق الفكر إذن والنطق من بعده بدأ الخلق، فخلق الأرباب جميعاً، وآتوم وتاسوعه أيضاً، ثم حدث أن أفضت كل كلمة ربانية تدبرها العقل الإلهي وأمر بها اللسان إلى أن تتابع خلق الأنفس وتقرر شأن الأطياف الحوارس، وتوفرت الأقوات جميعاً والميزات جميعاً وتقرر ما يسُتحب من أمور الناس وتقرر ما يُكره، وحق أن تُوهب الحياة لمن يعمل بالسلم، والفناء لمن يتحمل بالإثم، وفق الناووس الذي تدبره العقل وخرج باللسان فقدر لكل شيء قدره، أُنجزت الأمور جميعها، وأبدعت الفنون جميعها وتوفر نشاط اليدين وسعي القدمين وخلجات الأعضاء كلها"[3]

إن أصل الوجود في نظر فلاسفة (منف) هو الإله الخالق "بتاح"، أما كيف كان ذلك فهو الأمر اللافت للنظر والاعتبار في رؤيتهم، فالإله فكر بعقله أو قلبه، ومن ثم أدرك الخلائق وطبيعة كل مخلوق ثم نطق الكلمة بلسانه فكان تمام أمر الخلق، ولا شك أن الأرباب كانوا أول ما صدر عن الإله "بتاح" حسبما يشير النص، فهو خلق أول ما خلق الأرباب جميعاً بما فيهم الإله "آتوم" وتاسوعه، ثم تتابع بعد ذلك أمر الخلق، فخلقت الأنفس أو الأرواح الحارسة كما خلقت كل الأشياء والكائنات التي تتبع الحياة على هذه الأرض وبها عمرت الأرض واستمرت الحياة".[4]

ومن خلال تنظيم الكون على هذا النحو نصبح في وضع يسمح لنا باستنتاج الفلسفات التالية:

أ) الماء مصدر كل شيء حي.

[1] توملين (أ.و.ف)، المرجع نفسه، ص (38).

[2] جورج جيمس، المرجع نفسه، ص (135).

[3] عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، ص (41).

[4] مصطفى النشار، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، ص (69).

ب) الخلق إنجاز تحقق بفضل وحدة مبدأين خالقين: **بتاح وآمون** أي وحدة **(العقلNOUS)** مع **(اللوجوس)** كلمة الخلق.

ج) أتوم هو الصانع الأول أو الإله الوسيط في عملية الخلق. وهو أيضاُ إله الشمس أو إله النار.

د) المبادئ المتضادة تحكم حياة الكون.

هـ) عناصر الخلق هي **"النار" (أتوم) و"الماء" (نون) و"التراب" و"بتاح" أو تاتجينين (TATJENEN) و"الهواء".**[1]

المذهب الواستي:

هو نسبة إلى مدينة **"واست"** القديمة التي هي **"الأُقصر"** حالياً، والتي عُرفت في الزمن القديم باسم **(واست)** وقد عرفها اليونان باسم **(طيبة)**، بينما أطلق عليها العرب اسمها الحالي مدينة (الأُقصر).

لقد أسلمت المذاهب السابقة نفسها إلى مفكري هذه المدينة التي تهيأ لها حظاً واسعاً من السيادة خلال فترات التاريخ المصري القديم في عصر الدولة الوسطى والدولة الحديثة، وقد تطور بها الحال إلى أن أصبحت كبرى عواصم الشرق القديم بدون منازع، بعد أن أصبحت عاصمة الإمبراطورية المصرية الكبرى خلال أزهى فترات الدولة الحديثة، وقد نشط فلاسفتها ليمزجوا بين التفسيرات القديمة لأصل الوجود وكيفية الخلق بطريقة جديدة، أعطت السيادة لإله مدينتهم الأعظم الإله **"آمون"**، وجعلت من مدينتهم أم المدائن وسيدتها.[2]

لكن، يذهب بعض الباحثين إلى أن الموطن الأصلي للإله **(آمون)** إنما كان في مدينة "الأشمونيين"، وأن ملوك **"الأسرة الحادية عشرة والثانية عشرة"**، هم الذين أتوا به إلى **(طيبة)**، ثم أخذت شهرته تنتشر حتى طغى على جميع الآلهة المصرية، وعلى أي حال فلقد تمكن **(آمون)** من أن يتبوأ مكانة ممتازة في الدولة، عندما نجح **(أمنمحات الأول) (آمون في المقدمة)** من تأسيس **"الأسرة الثانية عشرة"**، بعد أن كان إلهها يكاد يكون مجهولاُ، أو على الأقل لم يكن له نفوذ سياسي في **مصر**، ثم سرعان ما أصبح بعد حين من الدهر الإله الرسمي للدولة.[3]

وتُصور لنا النصوص القديمة كيف حاول أهالي (واست) تمجيد مدينتهم وجعلها أصل المُدن ومركز الخلق والمدينة، لقد قالوا في بعض ما كتبوه عنها: "واست هي الأحق من كل مدينة، توفر فيها المياه واليابس منذ الأزل وزادتها الرمال فطوقت مزارعها وارتفعت ببطاحها على ما يُشبه النجد. وبذلك تكونت الأرض وأمكن أن يحدث فيها الخلق.

وبدأ الاتجاه إلى نشأة البلدان بمعناها الصحيح.

[1] جورج جيمس، التراث المسروق (الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة)، ص ص (135-136).
[2] مصطفى النشار، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، ص (70).
[3] سمير أديب، موسوعة الحضارة المصرية القديمة، ص (201).

وغدا لفظ "المدينة" يُطلق من بعد على أسماء هذه البلدان تحت كفالة "واست" أو تحت كفالة العين المقدسة لإله الشمس بمعنى أصح.

وكانت جلالتها أي عين رع قد وفت (على مدينة واست) وهي كاملة متكاملة نيرة رغبة في أن تحكم أمر العالمين فيها.

هي مدينة قيل عنها في الأزل: ما أعزها باسمها "واست" وقيل أنها مدينة سوف تخلد، وأنها سوف تنعم باسمها "وجات" ولا سيما أنه اسم العين اليُمنى لإله الشمس بالذات..[1]

على هذا النحو الأسطوري، صور فلاسفة "واست" أنها الأحق أن تكون أقدم المُدن وأعظمها، وأنها هي التي كانت أول ما ظهر على التل الأول الذي أطل برأسه من الماء أي أنها أصل الأرض وموطن الخليقة الأول.[2]

وإن كان ذلك كذلك، فإن الإله "آمون" يُصبح باعتباره إله هذه المدينة الإله الأول والأعظم، وهو خالق ورب العالمين وهو بداية الوجود وهذا ما عبر عنه فلاسفة المدينة في نص هام فقالوا فيه: "وُجد آمون منذ البداية دون أن تعرف له نشأة، فلم يُوجد قبله إله أو يُوجد معه إله يستطيع أن يصف له هيأة، ولم تكن له أم تبتدع له اسماً أو ولد ينجيه ويقول ها أنذا..

وحسبه أنه الإله وأنه وُجد من تلقاء نفسه وأن الأرباب جميعاً تتابعوا من بعده..

والحق أنه عجيب، كثير الأوضاع، افتخر الأرباب جميعهم بأنهم منه ابتغاء أن يستزيدوا من بهائه وربوبيته حتى لقد بلغ من ذلك أن (رع) ذاته اتحد ببدنه وهو قديم النشأة في (أون)

وقال عنه الناس إنه "تاتنن" (رب منف القديم)

و أنه "آمون" الذي صدر عن "نون"

وأنه من هدى الخلائق أجمعين، وأن له صورة أخرى بين أعضاء الثامون وأنه هو الذي أنجب من استولدوا الشمس من الأرباب الأولين

وأنه من استكمل ذاته في هيئة "أتوم" وأنه كان معه بدناً فرداً

وأنه رب العالمين وأنه بداية الوجود"[3].

وأهم ما ينبغي نلاحظه من ذلك النص، بالإضافة إلى ما سبق الإشارة إليه، أن الإله (آمون) رغم أنه الإله الذي خلق نفسه بنفسه وأوجد بقية الآلهة، إلا أنه قد اتخذ في حياته القديمة أكثر من صورة، فبعد أن أوجد نفسه بنفسه واستمر إلهاً واحداً فرداً لمدة قدرها لنفسه، وتحير لنفسه مكاناً قدسياً استقر فيه متخفياً باسمه ووشكله والمقر الذي استقر فيه، وهذا ما عبر عنه أتباعه حينما لقبوه **"بآمون رنف"** أي خفي الاسم، و**"كم آنف"** أي الذي أتم عهده، وعلى كل حال فلقبه الأشهر **(آمون الخفي)**[4].

[1] عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، ص (43).

[2] مصطفى النشار، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، ص (71).

[3] عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، ص (44).

[4] مصطفى النشار، المرجع نفسه، ص ص (72-73).

هذا وقد مزج الإله **(آمون)** والإله **(رع)** تحت اسم **"آمون رع"** منذ بداية **"الأسرة الثانية عشرة"**، بغية أن يكتسب **آمون** صفات **رع** ونفوذه القوي بين الناس، وحتى يمكن عبادته وقبول طبيعته **"كرع"**[1]

بعد ذلك ارتأى أن يتخذ وضعاً جديداً، فغادر هذا المقر الخفي ليتخذ مقره الجديد في (أون) وسط ذلك الكيان المائي العظيم "نون"، ثم اتخذ صورة الإله الخلاق الفتاح (تاتتن) وهو اسم آخر للإله "بتاح" إله (منف) القديم، بمعنى رب الأرض العالية الناهضة.

ولم يكتف بذلك، بل اتخذ كياناً جديداً وسط "الثامون الإلهي" المقدس عند أصحاب المذهب الأشموني، فضلاً عن أنه منذ البداية قد اتخذ هيئة "رع" حينما اتحد الأخير ببدنه فأصبح من ألقابه (آمون رع)، تنويهاً بأُلوهيته للشمس وما يصدُر عنها من حرارة ونور.

إن هذه الصورة المتعددة التي اتخذها الإله (آمون) لنفسه أو التي أصبغها عليه أتباعه، إنما استهدف بها حسب **(عبد العزيز صالح)** التبشير بدعاوى أربعة هي:[2]

1) إن رب الشمس الذي عهد الأرباب الأوائل بخلافتهم إليه، لم يكُن (رع) أو (رع أتوم) كما أدى فلاسفة (أون)، وإنما كان (آمون رع) الذي يرتد نسبه أصلاً إلى مدينة (واست) وحدها.

2) إن ما انتهى إليه (آمون رع) في نهاية المطاف، أنه قد جمع شتى مظاهر السلطة والقوة والتقديس التي سبق وأن افترضها أصحاب المذاهب الأخرى في مُدن (أون) والأشمونيين و(منف) لأربابهم جميعاً.

3) إن (آمون رع) وإن بدا للناس في وضعه الأخير خليفة لأرباب الخلق الأوائل ووريثاً لعروشهم جميعاً، إلا أنه في حقيقة الأمر كان الفيض الأخير للإله الخلاق القديم "كم آتف" بعد أن تلبس أحد الأوضاع التي قدرها لنفسه وبنفسه.

4) وأخيراً لقد أراد فلاسفة (واست) القُدامى أن يُؤكدوا للناس أن الروح الإلهية التي اعتادوا أن يتعبدوا لها في معابد (واست) العديدة، لم تكن في الحقيقة غير روح واحدة وإن تعددت أوضاعها، فهي قد صدرت جميعها عن واحد، وارتدت إلى واحد[3].

وإذا كان من العسير على الناس فهم معنى الخفاء والغموض التي يقدمها اسمه، ولم يكن المزج بالإله **(رع)**، يرجع إلى طبيعة **آمون** كإله للهواء، وأن القوة الخلاقة في الهواء ومثيلتها في الشمس واحدة، وأن رفعه إلى مرتبة الإله الأعظم كان على أساس أنه لا توجد قوى في الكون تبارى مزج **(الشمس والهواء)**، ذلك لأن صفة **آمون** كإله للهواء لم تظهر إلا متأخراً عند مزجه **"برع"**، وذلك منذ بداية **"الأسرة الثانية عشرة"**.[4]

[1] سمير أديب، موسوعة الحضارة المصرية القديمة، ص (201).
[2] مصطفى النشار، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، ص ص (72-73).
[3] عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، ص (45).
[4] سمير أديب، موسوعة الحضارة المصرية القديمة، ص (201).

والحقيقة أن هذا التفسير (الواستي)، بحكم ما تيسر لأتباعه من سطوة وسلطان وبحكم ما تيسر لمدينة (واست) القديمة من مكانة مركزية في التاريخ المصري القديم، خاصة في العصرين الوسيط والحديث، قد ظل المذهب الأشهر والأكثر شيوعاً بين المصريين، وربما يرجع ذلك بالإضافة إلى ما ذكرناه إلى سببين رئيسيين هما:

أولاً: أنه قد لخص كل المذاهب السابقة واعتبرها نابعة من المذهب (الواستي)، باعتبار أن الإله (آمون) كان هو الأول الخفي، وكان هو الآخِر الظاهر الذي اتحد بإله الشمس وإله الأرضين جميعاً.

ثانياً: أنه كان الأقرب إلى تصور المصريين القدامى في تلك الحقبة التاريخية التي كان لا يزال الناس فيها لا يتصورون الربوبية، إلا على هيئة أرباب متعددة يرأسها جميعاً الإله الأعظم، وبذلك كان التصور السائد رغم اختلاف المدن التي قدم أهلُها التفسيرات ورغم اختلاف تسميتهم للإله الأعظم[1].

وتعليقاُ على ما قدمه قدماء المصريين من تفاسير وتصورات وأناشيد للآلهة بناءاُ على ما تقدم، حول أصل الوجود والعالم الطبيعي، يقول **"جيمس هنري بريستد"**: "إن إله المصريين، هو إله كل الناس وكل العالم، وأبو وأم كل ذلك الذي صنعه، وكل الناس يعترفون بحكمه.... بذاك الذي أوجد حياتهم..... وقوته الخالقة المستمرة.... هي مصدر الحياة الدائم والقائمة بأودها.... وكل هذا يكشف عن تبيّن حضور اللّه في الطبيعة..... كالذي نجده بعد ذلك بألف سنة في مزامير العبرانيين وفي شعراء الطبيعة..... فهو ينام ولكن لا يموت أبداُ وهو الحاكم الطيب... والراعي الصالح....(الذي يفضل) الوجل على المتعالي المتكبر...(و) يلبي صرخة المسكين المصاب، المغلوب على أمره.."[2].

التطابق بين (أتوم atom) إله الشمس المصري وبين (أتوم atom) الذّرة في العلم الحديث:

شيئان أود أن أبرزهما فيما يختص بالعلاقة بين **أتوم atom** الإله الشمس المصري وبين **الذّرة atom** في العلم الحديث، هما: **(تشابه الصفات- تشابه منطوق الأسماء)**

1) تشابه الصفات:

الإله المصري القديم **أتوم** يعني خالق ذاته بذاته، وخالق الوجود والعدم، وجماع المبادئ الأساسية السالبة والموجبة، المحيط بكل شيء والفراغ، الصانع البارئ مالك قوى الخلق، الشمس الخالقة، **وأتوم** تعني أيضاُ الكل والذي لم يصبح وجوداُ يُعد ويمثل **أتوم atom** من حيث هو إله مبدأ الأضداد، وكذلك **الذّرة atom** في الفلسفة اليونانية هي أساس المادة، وحدد **"ديمقريطس"** معناها بقوله: **"إنها حركة ذلك الذي أصبح موجوداُ داخل الذي لم يصبح**

[1] مصطفى النشار، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، ص ص (73-74).

[2] جيمس هنري بريستد، تطور الفكر والدين في مصر القديمة، ص ص (425...474) نقلاً عن: حمدي فضل الله، بداية التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت (لبنان)، (ط1)، 1994، ص (83).

موجوداً بعد"، أو لنقل أنها حركة الموجود وسط العدم، وهي لذلك تمثل مبدأ الأضداد وتبين التطابق بين الإله الشمس المصري وبين قوام المادة، علاوة على هذا فقد تحدد معنى **الذّرة** بأنها **"الملأ والفراغ" "الوجود والعدم"**، وتتطابق هذه التعريفات مع كل الوجود والعدم والمحيط بكل شيء والفراغ وهي صفات الإله الشمس المصري.

2) تشابه الأسماء بين الإله الشمس المصري "أتوم" وبين الذّرة "أتوم" في العلم:

والآن ونحن نتحدث عن التشابه بين هذين الاسمين حرى بنا أولاً أن نتذكر أن لكليهما صفات متطابقة على نحو ما أشرنا من قبل، ومن ثم نحن مضطرون إلى استنتاج أن ذرة العلم هي الاسم المطابق للإله الشمس المصري: أقدم الآلهة فيما عدا الإله **"بتاح"** الذي كان موجوداً مع **"أتوم"** عند الخلق، والشيء الثاني الذي يتعين علينا أن نتذكره هو حقيقة أن اسم الإله **أتوم** الذي يُكتب أحياناً **atom** بمعنى **ذّرة** وأحياناً أخرى **atum** خاص بكوزمولوجيا أو بنظرية تفسير نشأة الكون ونواميسه، في فقه إلهيات **(ممفيس)**، والذي يرجع تاريخه إلى **(4000 ق.م)**، ولم يكن الإغريق معروفين في ذلك التاريخ، وبناء عليه لا مناص مناستنتاج أن الإغريق حصلوا على الاسم الأصلي وعلى صفات الإله الشمس **أتوم** من المصريين. إضافة إلى ما سبق، لم يكن لدى الإغريق دراية باللّغة المصرية خلال الفترة التاريخية الخاصة بما يسمى الفلسفة اليونانية والتي يرجع تاريخها إلى القرن **(السادس ق.م)**، ونتيجة لذلك فقد نقلوا منطوق أحرف الكلمات المصرية دون اعتبار لمشتقاتها القبطية، وذّرة العلم في واقع الأمر اسم الإله الشمس المصري وقد انحدر إلى عصرنا الحديث عبر ما سمي بالفلسفة اليونانية، ويحمل هذا الاسم نفس صفات الإله الشمس.[1]

خاتمة:

ومن خلال ما تطرقنا له، يمكننا الخروج بخلاصة مفادها أن قدماء المصريين فسروا أصل الوجود والعالم الطبيعي تفسيراً ميتافيزيقياً ما ورائياً، أو ألهوياً إن صح لنا ذلك، فرغم اختلاف الرُؤى للمذاهب الأربعة من حيث أنه كان لكل مذهب إله خاص به، إلا أنها تشترك في ردها لأصل الوجود إلى الآلهة في حد ذاتها، بحيث لم نجد مذهباً من المذاهب الأربعة يرد أصل الوجود إلى مبدأ مادي **" كالماء"** أو **"الهواء"** مثل ما هو قائم في الفلسفة اليونانية، فرغم قولهم بالكيان المائي لكنهم قصدوا به العدم المطلق اللانهائي أو الخواء مثلما عبر عنه بعض الباحثين أو **"نون"** مثلما ورد في نصوص قدماء المصريين، فالسبب الحقيقي لوجود العالم الطبيعي في مصر القديمة هو **"الآلهة"**.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى لمسنا في بحثنا هذا لموضوع الطبيعة في الفكر المصري القديم، أن الطبيعة أخذت أكثر من بُعدها الفلسفي والمعرفي كمبحث من مباحث الفلسفة، إذ ربطها مفكري المذاهب الأربعة بأبعاد سياسية ودينية وإيديولوجية، وهذا ما جعل التفكير في

[1] جورج جيمس، التراث المسروق(الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة)، ص ص (142-143).

موضوع الطبيعة عندهم يتخذ شكلاً تنافُسياً لكي يُبين كل مذهب جدارته الفكرية في تفسير أصل الوجود والعالم الطبيعي، ويخط سطوراً من ذهب في تاريخ الفكر الفلسفي.

وفي الأخير يمكننا استخلاص ما للحضارة المصرية القديمة من وزن في موضوع الطبيعة كمرجعية فلسفية، وقاعدة معرفية للبشرية جمعاء، سواء للحضارات المعاصرة لها مثل **(الحضارة الصينية- الهندية- الفارسية...)**، أو اللاحقة لها **(كاليونانية- الإسلامية- الوسيطية....و حتى المعاصرة)**، بغض النظر إن كان هذا الحضور في المراحل اللاحقة لها قد أُعتبر أسطورياً، فحتى لو كان كذلك فإنه يمكن اعتباره كنقطة انطلاق لمحاولاتهم، فلولا هاته التفسيرات والتصورات أو يمكن اعتبارها محاولات، لما تمكن اللاحقون للفكر المصري القديم من المحاولة أصلاُ، فمهما اتصف الفكر أو العلم بالنزعة الانفصالية، فإن له اتصال سواءً كان مباشراً أو غير مباشر بالتراث الفكري الذي سبقه.

مراجع البحث:

- **المصادر:**

1. جورج جيمس، التراث المسروق (الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة)، ترجمة شوقي جلال، المجلس الأعلى للثقافة، الإسكندرية (مصر)، (د ط)، 1996.
2. جون ولسن، ما قبل الفلسفة، ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا، منشورات دار مكتبة الحياة، بغداد (العراق)، (ط1)، 1960.
3. توملين (أ.و.ف)، فلاسفة الشرق، ترجمة عبد الحميد سليم، دار المعارف، القاهرة (مصر)، (ط2)، 1980.
4. فرونسوا ديماس، آلهة مصر، ترجمة زكي سوس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (مصر)،
5. (د ط)، 1998.
6. *J.h.breasted: development of religion and thought in ancien Egypt ، New York ، 1912.*

- **المراجع:**

1. حمدي فضل اللّه، بداية التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت (لبنان)، (ط1)، 1994.
2. محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، مكتبة البيت الأخضر، القاهرة (مصر)، (ط1)، 1937.
3. مصطفى النشار، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة (مصر)، (ط1)، 1997.

- **الموسوعات:**

سمير أديب، موسوعة الحضارة المصرية القديمة، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة (مصر)، (ط1)، 2000.

- **المجلات:**

1. عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، من مجلة "المجلة"، العدد 26، القاهرة (مصر)، فبراير 1956.
2. جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب القديمة، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة، العدد 173، الكويت، ماي 1993.